الأسطول الفاطمي نموذج للتفوق البحري الإسلامي ٢١٢-٣٦٥هـ/٨٢٧-٩٧٦م

د. أحلام حسن النقيب
جامعة الموصل / كلية التربية

تاريخ تسليم البحث : ٢٠٠٦/٧/٥ ؛ تاريخ قبول النشر : ٢٠٠٦/٥/٢

ملخص البحث :

اهتم الفاطميون بالاسطول البحري وإنشاء الموانئ لتحقيق أهدافهم في اقامة دولة عظيمة في البحر المتوسط وبخاصةً بعد فتحهم جزيرة صقلية وجعلها قاعدة لأسطول كبير يحقق تنفيذ مشاريعهم البحرية .

إستهل الأسطول الفاطمي نشاطه المبكر في حوض المتوسط الغربي بتدعيم سلطان الفاطميين بشمال أفريقية وبسط سيطرتهم على الجهات الساحلية واستطاعت المراكب الفاطمية أن تغزو جنوب فرنسا ومدينة جنوة وتستولي على مدينة بيزا الايطالية فأصبح الأسطول الفاطمي متحكماً بمياه البحر المتوسط ، وقد بلغت قوته درجة كبيرة وتفاقم خطره على الأساطيل البيزنطية حيث ضاعف من غاراته عليها من موانئ المغرب وثغوره حيثُ نجح في رد غزوات الروم .

وكان للبحرية الفاطمية شأن آخر في بلاد المغرب ومصر فيما بعد على عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله الذي جعل غرب البحر المتوسط بحيرة فاطمية فاتخذ من المهدية وسوسة والمنصورية وغيرها من الموانئ أماكن تأوى اليها سفنه .

فالأسطول الفاطمي يمثل العامل الأكبر في انتصارات الفاطميين البحرية ويعود اليه الفضل في تزويد جوهر الصقلي بالامدادات في أثناء سيطرته على مصر . وقد عنى الفاطميون عناية كبيرة بالأسطول ورجاله في المغرب وحتى بعد رحيلهم الى مصر . وقد قدّرت سفن الأسطول الفاطمي التي بنيت في دور الصناعة المصرية على عهد الخليفة المعز بأكثر من (٦٠٠) قطعة مختلفة الأشكال والأحجام وكان رجال الأسطول يشغلون مكانة سامية بين موظفي ديوان الجيش وكان صاحب ديوان الجيش هو أمير الأسطول .

The Fatimid Fleet The peak of Islamic Maritime Superiority

Dr. Ahlam Hassan AL-Naqeeb
University of Mosul- Education College

Abstract:

The Fatimids paid attention to the maritime fleet and the burlding of porsts to achieve their goals in establishing agreat empire in the mediterranean , especially after their seizing of sicily and making it abase for agreat feet which would realize the execution of their maritime plans .

The Fatimrd fleet stated its early activity west of the mediterranean by supporting the Fatimids dominion over north Africa and controlling the coatal ports . The Fatimid vessels could invade the south of France and Genoa city and over take the Italian city of Biza . Consequently , the Fatimid fleet was in control of the Mediterranean , its power had undergone tremendous progress and its danger to the Byzantine fleets aggravated , because it doubled its raids on them from ports and outposts of Morocco .. It succeeded to defend the Islamic Morocco by repulsing the attacts of the Romans .

The Fatimid experience had another sigificance in Morocco and Egypt later in the reign of callph A-Muiz lideenil lah who made the west of the Meditrranean aFatimid lake . He , therefore , took Al – Mahdiya , susa , Al – Mansouriya and other ports as refuge to his vessels .

The Fatimiid fleet is considered the greatest factor in the Fatimids maritime victories , and to it goes the cred it of providing Jawhar of sicity with supplies during his invasion of Egypt . The Fatimids attached geat importance to the fleet and its men in Morocco and even after their depature to Egypt . The vessels of the Fatimid fleet which were built in the Egyption industrial workshops in thereign of calip Al – Muiz were estimated at more than 600vessels of different kinds and sizes . The men of the fleet occupied a high statas among the employees of the army court , an the manager of the army court was the fleet admiral .

المقدمة:

بدأت البحرية الإسلامية في الظهور قبل أن انتصر العرب على البيزنطيين في معركة ذات الصواري الفاصلة سنة ٣٤هـ/٦٥٤م التي دعمت السيادة العربية على السواحل الشرقية للبحر المتوسط[١] .

اذ تمتع البحر المتوسط منذ أقدم العصور والى الوقت الحاضر بموقع جغرافي فريد من نوعه ، جعله مطمع كل قوة تبغي لنفسها الازدهار والسلطان في هذا المجال البحري .

وقد اتخذ العرب المسلمون أهبتهم للخوض في غمار هذا البحر وفق خطوات منظمة مدروسة بعيدة عن الارتجال والفوضى ، وذلك منذ أن لامست أقدامهم مياهه في القرن السابع الميلادي حاملين راية الإسلام[٢] .

وسرعان ما اشتد عود الأسطول* العربي الفتي فهزم بحرية الروم وانتزع منها سيادة البحر المتوسط الذي زالت عنه صفة (بحر الروم) وغدا بحيرة عربية إسلامية لسلطان الفاطميين* في شمال أفريقية ثم في مصر والشام فيما بعد ، حيث بدأ عصر سيادة الأساطيل العربية في البحر المتوسط بلا منازع وقد أشاد الدوري قائلاً : يعتبر فتح جزيرة صقلية من المعالم الهامة في تأريخ البحرية العربية اذ أنها أحد مفاتيح البحر المتوسط الهامة التي أصبحت بأيديهم وهذا معناه التحكم في القسم الأوسط الشمالي من البحر المتوسط بحكم موقعها فيه ، وكذلك مكنتهم من السيطرة على بعض الجزر والمضايق الغربية اضافةً الى السيطرة القديمة على قسم من الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط وكل هذا يعني السيطرة على القسم الأوسط من البحر المتوسط شمالاً وجنوباً ومن سيطر على ذلك القسم سيطر على جميع مقدرات هذا البحر ، واذا أضفنا السيادة العربية السابقة في الشرق والجنوب والغرب اعتباراً من بلاد الشام ومصر والمغرب والأندلس وسيادة عرب كريت في شمال وشمال شرق البحر المتوسط أمكننا القول أن البحرية العربية بلغت أوج اتساعها وانتشارها حتى أصبح البحر المتوسط فعلاً بحيرة عربية[٣] ، واستطاعت الدولة الفاطمية الناشئة أن تتبوأ تلك المنزلة السامية في تأريخ البحرية العربية بسبب نشأتها وترعرعها في بيئة بحرية خالصة شاهدت منذ أقدم العصور أقوى الأساطيل وأشهر أمراء البحار الذين عرفهم التأريخ آنذاك[٤].

بدايات البحرية الفاطمية:

من المعلوم أن الفاطميين قضوا على دولة الأغالبة وورثوا ملكهم في (رقادة) عاصمة الأغالبة في سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م[٥] ، وصراعهم في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، هذا الصراع ازداد حدةً وعنفاً بعد فتح المسلمين لصقلية سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م فأصبحت منذ ذلك الحين إحدى القواعد الهامة لانطلاق الجيوش الإسلامية[٦] .

ولما جاء الفاطميون ضاعفوا من ذلك النشاط ولم يكتفوا بموقف الدفاع وصد الهجمات بل وقفوا موقف الهجوم وحاولوا كسب مراكز جديدة لأنهم كانوا يهدفون الى تكوين دولة قوية ذات قواعد عسكرية برية وبحرية كي يتمكنوا من أخذ زمام المبادرة وحماية دولتهم من أي خطر مهما كان مصدره ، ومن الطبيعي أن تجعلهم هذه السياسة يهتمون بالأسطول البحري ، وانشاء الموانئ الهامة كالمهدية* وغيرها[٧] . واقامة دور صناعة السفن على اختلاف أحجامها وفي الوقت نفسه اهتم خليفة الفاطميين عبيد الله المهدي (بجزيرة صقلية)* ودعم سلطاته فيها ورأى في الاحتفاظ بها سبيلاً لتحقيق أهدافه في انشاء دولة قوية في المتوسط وجعلها قاعدة لأسطول كبير يحقق تنفيذ مشاريعهم البحرية[٨] .

واستهل الأسطول الفاطمي الوليد نشاطه المبكر في حوض البحر المتوسط الغربي بتدعيم سلطان الفاطميين بشمال أفريقية وبسط سيطرتهم على ما جاورهم من الجهات الساحلية التي دأب أهلها على الشغب والثورات ، وقد واجه الأسطول في أثناء تحقيق هذه المهمة أسطول الأندلس ومحاولاته المتكررة للاغارة على ممتلكات الفاطميين[٩] .

فالخلافة الأموية في الأندلس أقلقها قيام سلطان الفاطميين على مقربة من ديارهم وارتابت من أهداف الفاطميين التوسعية وبلغت شدة خوف الأمويين مبلغاً جعلهم يتحالفون مع الروم والافرنجة ضد الأسطول الفاطمي فيذكر أن عبد الرحمن الناصر لدين الله تحالف مع امبراطور بيزنطة قسطنطين السابع (٣٤٩-٤١٩هـ/٩٦١-١٠٢٨م) الذي كان يأمل في استرجاع صقلية وغيرها من المراكز البحرية التي كانت في أيدي خصومه الفاطميين ، كما تحالف الناصر مع ملك ايطاليا الذي كان ناقماً على الفاطميين بسبب غزوهم وتدميرهم ميناء جنوة[١٠] .

لقد جرد الفاطميون حملاتهم العسكرية ضد الروم في كل فرصة سانحة طيلة عهدهم في المرحلة المغربية ، فالخليفة عبيد الله المهدي تابع هجماته عليهم سنين عديدة من المهدية أو صقلية حيث توجهت حملة بحرية من الميناء الأول بقيادة صابر* الفتى سنة ٣١٥هـ/٩٢٩م قوامها أربع وأربعون مركباً جابت عباب البحر حتى وصلت صقلية وفيها شنت غاراتها على سواحل الروم ومدنهم فقتلت الكثير وغنمت وعادت الى قواعدها سالمة[١١] . ثم أعاد صابر الكرّة في السنة التالية من صقلية أيضاً فافتتح عدة مواقع رومية واستولى على ما فيها وأجبر مواقع أخرى على مصالحتهم بأموال وديباج وثياب وعاد بجيشه الى صقلية مركز انطلاقه[١٢] ثم أعاد الكرّة سنة ٣١٧هـ/٩٣١م فالتقى في البحر بسبعة مراكب للروم وهو في أربعة مراكب فهزم خصومه وفتح وسبى سبياً كثيراً ورجع الى المهدية[١٣] وبذلك سنّ المهدي لمن جاء بعده سنّة توجيه الحملات البحرية من المهدية[١٤] وصقلية ضد الموانئ الرومية ، وكان ولاة صقلية يساهمون مساهمة فعّالة في هذا المجال نظراً لمركز ولايتهم السوقي وامكانات أسطولها البحري ،

وخير مثال على ذلك الحملة التي قادها يعقوب بن اسحق* في آخر حياة عبيد الله المهدي ففتحت جنوة وسردانية[١٥] .

ويظهر أن الملاحة الأوربية في ذلك العصر في حالة يرثى لها من الضعف ففي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٥م استطاعت مراكب عبيد الله المهدي الفاطمي أن تغزوا جنوب فرنسا ومدينة جنوة وتستولي على ما فيها ، وفعلت كذلك في مدينة بيزا في عامي ٣٥١هـ و ٣٥٤هـ فهذا النصر يبين لنا مدى ثقل وطأة الأسطول الفاطمي على أساطيل أوربا وتحكمه في مياه البحر المتوسط أولاً وعصر سيادة الأساطيل الإسلامية لهذا البحر ثانياً[١٦] .

وظلّ الاهتمام بالأسطول متواصلاً وكبيراً في عهد الخليفة الجديد أبي القاسم نزار الذي تلقب بالقائم بأمر الله (٣٢٢-٣٣٤هـ/٨٣٤-٩٤٥م)[١٧] فقد بلغت قوته شأواً بعيداً وتفاقم خطره على الأساطيل البيزنطية حيث ضاعف من غاراته عليها من موانئ المغرب وثغوره ، ومن صقلية أيضاً ، ولعل قلة الثورات الداخلية في بداية عهده تركت له مجالاً للاهتمام بحرب الروم والعناية بالأسطول أكثر من أبيه ويقول ابن خلدون بهذا الصدد[١٨] : ((وكان الخليفة أبو القاسم وأبناؤه يغزون بأساطيلهم من المهدية ، جزيرة جنوة فتنقلب بالظفر والغنيمة كما وقع في أيام بني الحسن ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين ، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي ، وأساطيل المسلمين قد ضربت ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الكثير من بسيط هذا البحر عدةً وعدداً ، واختلفت في طرقه سلماً وحرباً ، فلم تسيح للنصرانية فيه ألواح ...)) .

هذا النص يبين لنا مدى الدور الخطير الذي شغله الفاطميون في الدفاع عن المغرب الإسلامي والمتمثل في رد غزوات الروم .

ازدهار البحرية الفاطمية :

على عهد الخليفة الفاطمي أبو تميم معّد المعز لدين الله ٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٢-٩٧٦م [١٩] ، كان للبحرية الفاطمية في عهده شأن آخر في بلاد المغرب ومصر فيما بعد حيث اتخذ هذا الخليفة من المهدية مرفأً رئيساً ومن سوسة وغيرها من الموانئ أماكن تأوى اليه سفنه ولا نغلوا اذا قلنا : أنّ المعز لدين الله بفضل أسطوله القوي جعل غربي البحر المتوسط بحيرة فاطمية[٢٠] وذلك نظراً لقلة الاضطرابات الداخلية في عهده وبفضل سياسة اللين والتفتح التي إنتهجها -أحياناً- مع الثائرين ولذا وجد المجال متسعاً للأهتمام بالأسطول ، وتبين لنا سيرة جوذر اهتمام المعز البالغ بالأسطول[٢١] ، والمتمثل بانشاء المراكب الحربية في المهدية ، وشراء احتياجات الأسطول ، وحمل العدّة والسلاح والأطعمة الى صقلية لنصرة العساكر ، كما إتخذ من

المراسي المختلفة مأوى لقطع هذا الأسطول ، ويصف لنا الشاعر إبن هانئ الأندلسي ت ٣٦٢هـ/٩٧٣م الأسطول الفاطمي في غاراته بقوله[٢٢] :

عليها غَمامٌ مُكْفَهِرٌ حَيرَةً له بَارِقَاتٌ جمّة ورُعَودُ

اذا زَفَرَتْ غَيظاً تَرَامَتْ بِمَارِجٍ كَما شَبّ منْ نَار الجَحِيم وقُودُ

فَأفْوَاهُنُ الحَامِياتُ صَوَاعِقُ وأَنفَاسِهنُ الزَافِرَاتُ حَديدُ

كما عمل المعز جاهداً على تحصين موانئه وقد كثرت في عهده المحارس والثغور مثل سبتة ومليلة ووهران وبجاية ومرسى الخزر* وبنزرت وقابس* وتونس وسوسة والمهدية وصفاقس وطرابلس وبنغازي حتى بلغ عددها على ما روى أكثر من عشرة ألاف حصن مبنية بالحجارة والكلس وأبواب الحديد[٢٣] .

ولا عجب أن وجدنا هذا الأسطول يمثل العامل الأكبر في انتصارات الفاطميين البحرية ويعود اليه الفضل في تزويد جوهر الصقلي* بالامدادات في أثناء فتحه مصر[٢٤] وبعد أن استولى عليها أقام للفاطميين حكماً بها سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م[٢٥] ثم قام بتأسيس مدينة القاهرة وبناء الجامع الأزهر[٢٦] وقد حكم جوهر قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله مصر كولاية فاطمية تابعة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله في المغرب مدة تزيد على ٤ سنوات ٣٥٨-٣٦٢هـ/٩٦٩-٩٧٣م لحين وصول المعز لدين الله الى القاهرة[٢٧] .

ولعل أهم العوامل التي ساعدت على نمو الأسطول وقوته هي :

١. الموقع الجغرافي الذي تتمتع به بلاد المغرب وكثرة موانيه ووجود أحواض لبناء السفن مثل المهدية وسوسة ومرسى الخزر وتوفر المواد اللازمة لبناء السفن كالأخشاب التي تصنع منها ألواح السفن والحديد الذي يوجد في صقلية وبونه (عنابه) وبجاية فضلا عن القطران والحبال[٢٨] .
٢. ورث الفاطميون عن الأغالبة أسطولاً قوياً يعود تأريخ نشأته الى عهد حسان بن النعمان ٧٥-٧٨هـ/٦٩٤-٦٩٧م حيث عملوا على تنميته وتطويره وبهذا لم يبدأوا من الصفر في هذا المجال .
٣. حب الجهاد عند الفاطميين حيث كان عنصراً هاماً من عناصر السياسة الفاطمية الحربية فتطلعوا الى التوسع شرقاً وغرباً وخوفهم من الخطر الخارجي المتمثل في الروم بصفة خاصة من أهم الحوافز التي جعلتهم يعنون أشد العناية بأمور الأسطول .

٤. وجد الفاطميون بين أهل المغرب فئات ذات كفاءة عالية ودراية بالملاحة والأمور البحرية المتوارثة منذ عهد الفينيقيين فكان هذا أحد العوامل في قوة بحريتهم ونجاحها[٢٩] .

٥. مركز صقلية البحري يعتبر من العوامل الهامة التي ساعدت على قوة الأسطول وتحكمه في مياه الحوض الغربي للبحر المتوسط فقد أصبحت محطة بحرية عامة للمسلمين منذ أن فتحت سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م على يد أسد بن الفرات[٣٠] .

٦. اهتمام المعز بالأسطول أكثر من أسلافه لأنه كان يهدف الى تكوين قوة بحرية كبيرة يسيطر بها على قسمي البحر المتوسط الغربي والشرقي على السواء[٣١]- .

٧. ومما زاد من قوة الأسطول الفاطمي في عهد المعز وراثته لأسطول الأخشيديين* في مصر بعد فتحها حيث وجد بين المصريين جنداً أكفاء في ميدان الملاحة النهرية والبحرية معاً[٣٢] .

فالى هذا الأسطول الفاطمي يرجع فتح مصر في وقت قصير فقد كان همزة الوصل بين جيوش جوهر الغازية وبين المعز في المغرب وفي حراسة هذا الأسطول كانت الامدادات تصل الى جوهر في سهولة ويسر ، وقد اتخذ المعز في بعض المدن المصرية دوراً لصناعة السفن فأنشأ في المقس* دار صناعة فخمة وصفها إبن أبي طئ[٣٣] قائلاً : ((لم يرمثلها في البحر على ميناء)) كما أن المعز لم يهمل دار صناعة الفسطاط التي كانت تسمى دار صناعة مصر ، كما عني المعز باقامة دور صناعة السفن في موانئ مصر الهامة كالاسكندرية ودمياط[٣٤] . واشتهرت جزيرة الروضة بصناعة السفن الحربية فبنيت في مصر دار صناعة لصناعة المراكب النيلية والشواتي وانشاء الحربيات والشلنديات[٣٥] .

كما إهتم المعز بمدينة المنصورية وأراد أن يجعلها ميناءاً ثالثاً من حيث الأهمية بعد المهدية وسوسة حتى أنه قال : ((ولئن امتد المقام هنا – أي في المنصورية – لنجرينّ البحر بحول الله وقوته الينا في خليج حتى تكون مراكبنا تحط وتقلع بحضرتنا))[٣٦] .

وقد قدّرت سفن الأسطول الفاطمي التي بنيت في دور الصناعة المصرية على عهد المعز بأكثر من (٦٠٠) قطعة مختلفة الأشكال والأحجام في حين بلغ عدد السفن في أواخر عهد الدولة الفاطمية مائة قطعة فقط[٣٧] .

ولم يكن بناء السفن في مصر راجعاً الى خوف المعز من غارات الروم على مصر فحسب بل حرص على أن تكون لأسطوله السيادة والتفوق على سائر أساطيل البحر المتوسط ، فقد دخلت في حوزة المعز لدين الله – (بعد أن تم له فتح مصر والشام – وفي هذا البحث لم نتطرق الى الأسطول الفاطمي في بلاد الشام وأقتصرنا فقط على بلاد المغرب ومصر) البلاد الواقعة على البحر المتوسط من أنطاكية شرقاً الى سبتة غرباً وبذلك بلغ الأسطول الفاطمي في عهده ذروة مجده[٣٨] .

وقد استغل المعز لدين الله موقع مصر والشام السوقي فكون أسطوله الشرقي الضخم ولو قدّر له البقاء طويلاً لكان هذا الأسطول أكثر ضخامة وأبعد أثراً وقد وصف المقريزي[٣٩] عناية المعز واهتمامه بالأسطول في مصر بهذه العبارة قائلاً : ((وقويت العناية بالأسطول في مصر منذ قدم المعز لدين الله وأنشأ المراكب الحربية ، واقتدى به بنوه وكان لهم اهتمام بأمور مصر واسكندرية ودمياط ، من الشواني* الحربية ، والشلنديات* ، والمسطحات* والأبركة ، والحراريق* وغيرها ...)) .

فضلا عن الأسطول البحري هناك أسطولاً نهرياً يسير في النيل يتكون من عدة مراكب أمثال العشاريات التي تستخدم في حمل غلاّت الدولة وغيرها والسميريات التي تستعمل في نقل المؤن والعساكر في الأنهار وكذلك الحمائم والسنابك ، وفي البحر الأحمر يوجد أسطول صغير قليل العدد يتكون من ثلاثة أو خمسة مراكب في مرفأ عيذاب* كان يقوم بأعمال الحراسة وتنظيفه من القراصنة منها المراكب المسماة (جلاب) جمع (جلبة) والتي كانت تبنى بدون أن تستخدم فيها المسامير ويصف لنا إبن جبير* طريقة صناعتها تفصيلاً .

وكان للأسطول أمير يدعى (قائد القواد) وقد سمي بذلك لأنه يرأس عشرة قواد كما كان يطلق عليه (أمير الجيش) و (المستوفي)[٤٠] .

وكان لهذا الأسطول ديوان يسمى (ديوان الجهاد) وكان مقره دار صناعة الانشاء بمصر ، ويختص هذا الديوان بانشاء مراكب الأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها والنفقة على رؤوساء المراكب ورجالها ، ورجال هذا الديوان يسمون (المجاهدون في سبيل الله) وكان الخليفة الفاطمي يقوم بموادعة الأسطول وتقام لذلك حفلة خاصة توزع فيها النفقة والخلع والألقاب على رجال الأسطول[٤١] .

وقد بلغ من عناية المعز ومن جاء بعده من الخلفاء بالأسطول أن الخليفة كان ينفق عليه في غزواته بنفسه ويساعده وزيره أو من يقوم مقامه ، ولم يكن بحارة الأسطول في مرتبة واحدة فهناك جماعة كانت تتقاضى راتباً قدره ديناران وأخرى تتقاضى ثمانية وثالثة تتقاضى عشرة دنانير ورابعة تتقاضى خمسة عشر ديناراً وخامسة تتقاضى عشرين ديناراً وسادسة تتقاضى خمسة وعشرين ديناراً ، أما أمير الأسطول أو (مقدّمه) فكان من كبار الأمراء والأعيان وهو أمر لابد منه على حد قول المقريزي : ((أن يقوم على الأسطول كبير من الأعيان من أمراء الدولة وأقواهم))[٤٢] .

كما كان الخليفة يقطع رجال الأسطول اقطاعات عرفت باسم (أبواب الغزاة) وكان قائد الأسطول يشرف عليه ويتناوب القواد العشرة الأشراف العملي فيأتمر الجميع بأمر القائد الذي تؤول الرياسة اليه[٤٣] .

وكان رجال الأسطول يشغلون مكانة سامية بين موظفي ديوان الجيش فلا عجب أن نرى صاحب ديوان الجيش كان أمير الأسطول وبذلك وضع المعز لدين الله أساس نظام البحرية في مصر(٤٤) ونهج نهجه من جاء بعده من الخلفاء الا أنهم لم يصلوا بالجيش والأسطول الى ما وصل اليه المعز .

فالخليفة الفاطمي المعز لدين الله نهض بالجيش والبحرية نهضة مشهودة كان لها أثر بعيد المدى فيما قام به الفاطميون من فتوح وما نالوه من انتصار وظفر ، وما كان هذا ليتم الا باستخدام المقاتلين الطرق العلمية في المجال البحري وبما تهيأ لهم من عدّة وأسلحة في مقدمتها النفط الخاص باحراق مراكب العدو ، كما استخدموا الكلاليب الحديدية التي ترمى على سفن العدو بقصد إغراقها أو العبور اليها بواسطة الألواح الخشبية والسلالم كما استخدموا السيوف ومختلف الأسلحة الخفيفة(٤٥) وقد بلغت قطع الأسطول الفاطمي بالمغرب ما يزيد على ثلاثمائة قطعة ، كما بلغت في عهد المعز بمصر أكثر من ستمائة قطعة كما أشرنا سابقاً(٤٦) .

يتجلى لنا مما تقدم أن الفاطميين عنوا عناية كبيرة بالأسطول ورجاله في المغرب وحتى بعد رحيلهم الى مصر واحتل رجاله مكانة بارزة في ديوان الجيش ، وبذلك سطّر الفاطميون صفحة زاهية مشرقة في التأريخ العربي بلغوا فيه ذروة التفوق البحري الإسلامي ، وبنوا لنا مجداً تليداً انبعث منه عبق البطولة والجهاد .

هوامش البحث :

(١) محمد بن جرير الطبري ، تأريخ الرسل والملوك ، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، القاهرة – ١٩٦٠-١٩٦٩ ، ٤/٢٨٨ ، ٢٩٠-٢٩٢ ، ٣٣٠ . هناك اختلافات في السنة التي حدثت فيها معركة ذات الصواري لاحظ كتاب تقي الدين عارف الدوري ، صقلية وعلاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية ، ص٢١ هامش (١) .

(٢) أبو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري ، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، تح: دوسلان ، بغداد ، نشر مكتبة المثنى – ١٩٦٨ ، ص٣٧ .

* كلمة أسطول : أصلها يوناني (Stolos) عرّبت وصارت تطلق على مجموع السفن الحربية وكذلك على السفينة الواحدة . أنظر ، عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، القاهرة ، (لا.ت) ص٢١٨ .

* يطلق عليهم أيضاً (العبيدين) نسبةً الى داعيها (عبيد الله المهدي) في أواخر القرن الثالث الهجري التاسع للميلاد ، أنشأ دولة في بلاد المغرب وأنتسبوا الى فاطمة بنت النبي (ص) بواسطة جعفر الصادق قامت الدولة الفاطمية سنة ٢٩٧هـ/٩٠٩م وأنقضت سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م وعدد خلفائها (١٤) خليفة . جرجي زيدان ، تأريخ التمدن الإسلامي ، القاهرة ١/٨٠-٨٣ .

(٣) تقي الدين عارف ، صقلية وعلاقاتها بدول البحر المتوسط ، دار الرشيد للنشر – بغداد- ١٩٨٠ ص٨٠ .

(٤) عبد المنعم ماجد ، تأريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة – ١٩٦٣ ، ص٢-٣ .

(٥) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تح: جمال الدين الشيال ، القاهرة – ١٩٦٧ ، ١/٦٢-٦٣ ؛ القاضي النعمان بن محمد ، افتتاح الدعوة ، تح: فرحات الدشراوي ، تونس – ١٩٧٥ ، ص٢٤٦ ؛ أبو الحسن علي بن الكرم محمد بن عبد الكريم إبن عبد الواحد الشيباني إبن الأثير ، الكامل في التأريخ ، بيروت – ١٩٦٧ ، ٨/٤٠-٤٧ .

(٦) الشريف الإدريسي ، وصف أفريقية الشمالية والصحراوية ، الجزائر – ١٩٥٧ ، ص٢٨-٣١ ؛ أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي ، رياض النفوس ، تح: حسين مؤنس ، ط١ ، القاهرة – ١٩٥١ ، ١/١٨٧ ؛ إبن الأثير ، الكامل في التأريخ ٧/٥-٧ ؛ تقي الدين عارف الدوري ، صقلية وعلاقاتها بدول البحر المتوسط الإسلامية من الفتح العربي حتى الغزو النورماندي ، بغداد ، دار الرشيد للنشر – ١٩٨٠ ، ص٣٤ وما بعدها .

* مدينة المهدية بناها عبيد الله المهدي بأفريقية عام ٣٠٣هـ/٩١٥م لتكون حصناً للفاطميين بينها وبين القيروان ستون ميلاً يحيط بها البحر من جهاتها الثلاث ولها بالبحر ثغر يلجأ اليه أسطول عظيم فهي قاعدة البلاد الأفريقية وقطب مملكتها .

أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تح: احسان عباس – ١٩٧٥ ، ص٥٦١-٥٦٢ ، ابراهيم جلال ، المعز لدين الله ، دائرة المعارف الإسلامية ، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه – ١٩٤٤ ، ص٨ .

(٧) أحمد توفيق المدني ، المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، القاهرة – بلا ، ص٧٢-٧٣ .

* جزيرة صقلية : معنى صقلية باللسان القديم (تين وزيتون) طولها ١٧٧ ميل وعرضها ١٥٧ ميلاً ، قاعدتها بلرم في شمال الجزيرة وصقلية اسم لإحدى مدنها فنسبت الجزيرة كلها اليها ، وهي جزيرة عظيمة ضخمة حصينة خطيرة منها ١٣٠ بلداً بين مدينة وقلعة غير ما فيها من الضياع والمنازل كثيرة الزرع والضرع والفواكه وفيها معدن الكبريت الأصفر الذي لا يوجد مثله .

الحميري ، الروض المعطار ، ص٣٦٦-٣٦٨ ؛ إبن الخطيب ، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، تح: أحمد مختار العبادي وآخر ، الدار البيضاء – ١٩٦٤ ، ص١٠١ .

(٨) البكري ، المغرب ، ص٢٩ ؛ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ، معجم البلدان ، بيروت – ١٩٥٥ ، ٢٣/٥ .

(٩) إبن حيان ، المقتبس ، ج٥ ، ص٢٨٨ ، إبن عذارى ، البيان ، ٢٠٤/٢ .

(١٠) إبن عذارى ، البيان ، ٢٢٠/٢ ، ٢٢٢ ؛ وديع أبو زيدون ، تأريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة في قرطبة ، ط١ ، الأردن – ٢٠٠٥، ص٢٣٤ ، ٢٣٥، ٢٣٦ ؛ أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة : أحمد عيسى ، القاهرة – ١٩٦٠ ، ص٢٣٤، ٢٣٦-٢٣٧ .

* صابر الفتى : أحد قواد الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي كانت له حروب مع البيزنطيين في صقلية وايطالية في السنوات ٣١٥هـ/٩٢٧م ، ٣١٦هـ/٩٢٨م ، ٣١٧هـ/٩٢٩م فمن المحتمل أن المهدي قد جلبه من صقلية في ذلك الوقت . ينظر : إبن عذارى ، البيان ، ٢٧٠/١ ، ٢٧٣ .

(١١) إبن عذارى ، البيان ، ١٩٢/١ .

(١٢) م.ن ، ١٩٤/١ .

(١٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ٢٠٩/٣ ؛ حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف عبد الله المهدي إمام الشيعة الاسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في المغرب ، القاهرة – ١٩٤٧ ، ص٢٠٢ .

(١٤) آدم متز ، الحضارة الإسلامية في القرن ٤هـ ، ترجمة : محمد عبد الهادي أبو ريدة ، ط٣ ، القاهرة – ١٣٧٧ ، ٤٢٦/٢ ؛ أرشيبالد لويس ، القوة البحرية ، ص٢٣٥ .

* يعقوب بن اسحق : لم نعثر له على ترجمة ولكن يبدو من خلال الأحداث أنه أحد قادة الأسطول الفاطمي الذي قام بغزوات على جنوة وسردينية وقرشقة (كورسيكا) Corsico .
إبن خلدون ، المقدمة ، تح: علي عبد الواحد وافي ، القاهرة – ١٩٥٧ ، ٦٢٩/٢ .

(١٥) صابر محمد دياب ، سياسة الدول الإسلامية في حوض البحر المتوسط في أوائل القرن ٢هـ حتى نهاية العصر الفاطمي ، ط١ القاهرة – ١٩٧٣ ، ص٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ .

(١٦) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، المقدمة ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني – ١٩٦٧ ، ص١٥٠-١٥٢ .

(١٧) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن ابراهيم بن خلكان ، وفيات الأعيان ، طبعة بولاق ، القاهرة – ١٢٩٩ ، ٤٠٨/٢ وما بعدها .

(١٨) المقدمة ، ص١٥٠-١٥١ .

(١٩) إبن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٥٤٧/٢ وما بعدها ؛ إبن تغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب ، القاهرة – ١٩٣٣ ، ٦/٤ .

(٢٠) مختار العبادي وآخر ، تأريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، بيروت – ١٩٨١ ، ص٧٦-٧٧ .

(٢١) الجوذري ، أبو علي منصور العزيزي ، سيرة الأستاذ جوذر ، تح: محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة ، القاهرة ، مطبعة الاعتماد – ١٩٥٤ ، ص١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١٩ .

(٢٢) ديوان إبن هانئ الأندلسي ، تح: زاهد علي ، بيروت – ١٣٥٦هـ ، ص٢٦ .

* مرسى الخزر : مدينة شرق مدينة بونة (عنابة) قليلة الزرع والفواكه وهذه المدينة قد أحاط بها البحر وفيها تنشأ السفن والمراكب البحرية عليها سور وبها سوق وعمارة واليها يقصد الغزاة من كل أفق ، وفيها يكثر المرجان الذي يعتبر من أجود أنواع المرجان في سائر الأقطار ويقصدها التجار ليستخرجون منه الكثير . الحميري ، الروض المعطار ، ص٥٣٨ .

* قابس : مدينة من بلاد أفريقية بينها وبين القيروان أربع مراحل وبينها وبين طرابلس ثمانية أيام وهي مدينة كبيرة قديمة عليها سور صخر ولها حصن حصين ورياض واسعة وهي مدينة بحرية بينها وبين البحر ٣ أميال وقد عرفت بدمشق المغرب ومرساها لا يستر من ريح انما ترسي القوارب بواديها وهو نهر صغير يدخله المد والجزر وهي كثيرة الثمار والتمر وفيها الحرير الذي لا يوجد أرق منه ولا أطيب .
الحميري ، الروض المعطار ، ص٤٥٠ .

(٢٣) البكري ، المغرب ، ص٣٧ ،٥٥ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ .

* هو جوهر بن عبد الله المعروف بالرومي أو الصقلي مما يدل على أن أصله يوناني من صقلية وأنه ربي في بلاط الفاطميين وعمل في دواوينهم وصار في مرتبة الوزير ، كما عرف بالكاتب وعرف أيضاً بالقائد بسبب أن الفاطميين لم يكن لديهم قائد في مثل كفاءته وحينما فتح مصر لقبه المعز بلقب مولى أمير المؤمنين مما يدل على أن الخليفة المعز شديد

التمسك به لأنه استطاع أن يجعل المغرب كله يدين لطاعة المعز فأطمأن المعز الى سيطرته على المغرب .

سيرة الأستاذ جوذر ، ص١٣٥ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، تح: الشيال ، القاهرة – ١٩٤٨ ، ص١٣٤ – ١٣٥ ، ١٦٢ .

(٢٤) السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة – ١٩٠٩ ، ١١/٢ .

(٢٥) وفيات الأعيان ، ٣٧٥/١ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفا ، ٩٧/١ .

(٢٦) إبن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣٧٦/١ ، ٣٨٠ ؛ أبو البركات محمد إبن أحمد إبن أياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تح: محمد مصطفى ، القاهرة – ١٩٧٥ ، ١٨٥/١–١٨٦ ، ١٨٩ .

(٢٧) إبن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣٨٠/١ .

(٢٨) إبن عذارى ، البيان ، ١٠٢/١ ؛ مختار العبادي وآخر ، تأريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، ص٧١–٧٦ .

(٢٩) إبن الأثير ، الكامل ، ٣٣٤/٦–٣٣٥ .

(٣٠) الحميري ، الروض المعطار ، ص٣٦٦–٣٦٧ .

(٣١) إبن عذاري ، البيان ، ١٨٠/١ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير (العصر الإسلامي ، القاهرة – ١٩٦٦ ، ص٦١٤–٦١٥ ؛ أرشيبالد لويس ، ص٢٣٥–٢٣٦ .

* حكم الأخشيديون مصر للفترة الواقعة بين ٣٢٣–٣٥٨هـ/٩٣٥–٩٦٩م مؤسسها هو محمد بن طغج الأخشيد . سيدة اسماعيل كاشف ، مصر في عصر الطولونيين والأخشيديين ، القاهرة ، ص١٣٧ .

(٣٢) إبن الأثير ، الكامل ، ٣١/٧ ؛ حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف ، المعز لدين الله ، القاهرة – ١٩٦٤ ، ص٨٣–٨٤ .

* المقس : مدينة تقع على نهر النيل قريبة من سور صلاح الدين وكانت قبل ذلك ضيعة تعرف باسم (أم دنين) ، حسن ابراهيم حسن ، تأريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ٥٩٣/٤ ، لاحظ الخارطة في الكتاب المذكور .

(٣٣) المقريزي ، الخطط ، ١٩٥/٢ .

(٣٤) م. ن ، ٣٢٩/١–٣٣٠ .

(٣٥) م. ن ، ١٩٣/١ ، اتعاظ الحنفا ، ص١٣٩ ؛ حسن ابراهيم حسن ، تأريخ الإسلام السياسي ، ٣٩٤/٤ ؛ العبادي وآخر ، تأريخ البحرية ، ص٩٠ .

(٣٦) القاضي النعمان بن محمد ، المجالس والمسايرات ، تونس – ١٩٧٨ ، ص٥٩٢ .

(٣٧)المقريزي ، ١٩٣/٢ ؛ حسن ابراهيم حسن ، المعز لدين الله ، ص١٨٦–١٨٧ .

(٣٨) إبن الأثير ، الكامل ، ٣١/٧ ؛ العبادي وآخر ، تأريخ البحرية ، ص٧٦–٧٧ ، ٧٩ ، صابر محمد دياب ، سياسة الدول الإسلامية ، ص١٠٢ .

(٣٩) الخطط ، ١٩٣/٢ .

* الشواني : مفردها شونه وهي سفن كبيرة بها أبراج كبيرة تشبه البوارج الحربية في يومنا هذا وبها آلات الهجوم والدفاع ، محمد صابر دياب ، سياسة الدول ، ص١٠٧ ؛ مختار العبادي وآخر ، البحرية ، ص١٣٢-١٣٣ .
* الشلنديات : مفردها شلندي من المراكب المسطحة وتختص بنقل المؤن والسلع وحمل العتاد والرجال ، وهي سفن كبيرة الحجم عظيمة الجرم شديدة الاتساع .
العبادي ، البحرية ، ص١٣٥-١٣٦ .
* المسطحات والأبركة : المسطحات مراكب ضخمة مسطحة تحمل الأسلحة للأسطول والأبركة نوع من السفن الخفيفة كانت مستعملة منذ القدم .
سعاد ماهر ، البحرية في مصر الإسلامية ، دار الكتاب العربي ، القاهرة – ١٩٦٧ ، ص٣٣٤ ، العبادي ، البحرية ، ص١٣٦ .
* الحراريق : جمع حراقة وهي مراكب حربية تستخدم لاحراق سفن العدو بالنفط وهي تلي الشواني في الأهمية وقد استكثر الفاطميون من هذه السفن اذ ورثوها عن الأغالبة واستخدموها في حروبهم ضد البيزنطيين .
إبن عذاري ، البيان ، ١٣٧/١ ؛ العبادي وآخر ، البحرية الإسلامية ، ص١٣٤ .
* مرفأ عيذاب : أحد القواعد البحرية الحربية على البحر الأحمر في العصر الفاطمي وصفها إبن جبير بأنها مدينة على ساحل بحر جدة وهي من أحفل مراسي الدنيا ، بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها فضلاً عن مراكب الحجاج الصادرة والواردة .
إبن جبير ، الرحلة ، ص١٦٣ .
* أنظر : رحلة إبن جبير ، البابي الحلبي ، ص٦٤،٦٥ .
(٤٠) المقريزي ، الخطط ، ١٩٣/٢ ؛ حسن ابراهيم ، تأريخ الإسلام ، ٣٧٤/٤ .
(٤١) عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ، الاسكندرية – ١٩٦٨ ، ص٢٨٠ ؛ للمزيد ينظر : أحمد مختار العبادي وآخر ، تأريخ البحرية ، ص٨٧ و ص١٤٤-١٤٥ وما بعدها .
(٤٢) المقريزي ، الخطط ، ١٩٣/٢ .
(٤٣) م. ن ، ١٩٣/٢ .
(٤٤) المقريزي ، الخطط ، ١٩٣/٢ .
(٤٥) أحمد مختار العبادي وآخر ، البحرية الإسلامية ، ص١٤١-١٤٢ .
(٤٦) المقريزي ، الخطط ، ١٩٣/٢ .